
طريق المكافح من أجل
الحرية

-١١-

لا أستطيع تحديد اللحظة التي سُبِسْتُ فيها والتي عرفت فيها أنني سأَمْضِي حياتي في الكفاح من أجل الحرية. ولأن تكون إفريقيا في جنوب إفريقيا يعني أن تُسَيِّسُ منذ الميلاد. فالطفل الإفريقي يولد في مستشفى للأفارقة فقط ويُحْمَلُ للمنزل في حافلة الأفارقة ويعيش في مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة، هذا إذا التحق بمدارس أصلاً. وحينما يكبر يقوم بالأعمال التي يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويؤمّر في أي وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقي به في السجن. وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التي تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته.

لم أتلق رؤيا أو أمر بلحظة الصدق، ولكنها كانت تراكمات مضطربة لآلاف الإهانات.. وآلاف اللحظات تلك هي التي ولدت في الغضب والتمرد والرغبة في محاربة النظام ووجدت نفسي ببساطة أكرس نفسي لحركة تحرير شعبي ولم يكن بمقدوري غير ذلك.

تولى وولتر سيسولا توعيتي وتعليمي بحكمة. فقد كان قويا، متزناً،

عمليا ومتفانيا. وكان يعتقد أن المؤتمر الوطني هو الوسيلة لتحقيق التغيير في جنوب إفريقيا وكان المؤتمر يرحب بالجميع كما أن المؤتمر كان المنظمة التي ترى نفسها مظلة يلتجئ إليها كل شعب جنوب إفريقيا.

وفي عام ١٩٤١ عُقد ميثاق الأطلنطي الذي كان يتبنى عددا من المبادئ الديمقراطية. ورغم أن البعض في الغرب كان يرى فيه وعودا فارغة فلم يكن الحال كذلك في إفريقيا. وبإيحاء من ذلك الميثاق وضع المؤتمر الإفريقي ميثاقه الذي نادى فيه بالمواطنة الكاملة لكل الأفارقة وبإلغاء التشريعات العنصرية. فقد كان أملنا أن ترى الحكومة والفرد العادي أن المبادئ التي نحارب من أجلها هي نفسها التي يحاربون من أجلها في أوروبا.

وكان منزل وولتر ملتقى أعضاء المؤتمر. وهناك في عام ١٩٤٣ التقيت بانتون ليمبيد الذي كان يحمل عدة شهادات عليا ويفكر بطريقة مبتكرة وكان أحد المحامين الأفارقة الذين يعدون على الأصابع. وكان يقول إن إفريقيا قارة الرجل الأسود وإن على الأفارقة أن يثبتوا ذاتهم ويستربوا مالهم. وكان يكره عقدة النقص السوداء ويهاجم عبادة

الغرب وتقديس أفكاره وكان يقول «إن لون بشرتى جميل كلون تربة إفريقيا الأم».

وكان والد ليمبيد فلاحا أميا من الزولو من إقليم ناتال. أما هو فقد درس فى كلية آدم ليصبح مدرسا وقام بالتدريس عدة سنوات فى ولاية أورانج الحرة وتعلم اللغة الأفريكانية وقد كتب فى صحيفة أفريكانية قائلا: «إن التاريخ الحديث هو تاريخ القوميات. وقد تم اختبار القومية فى معارك الشعوب وتحت نيران المعارك ووجد أنها الترياق الوحيد ضد الحكم الأجنبى والإمبريالية الحديثة. وهذا هو السبب فى أن القوى الإمبريالية الكبيرة تحاول بكل قواها وبطريقة محمومة أن تحبط وتزيل كل الميول القومية بين رعاياها الأجانب وتصرف المبالغ الباهظة بسخاء على الدعاية ضد القومية ووصفها بالضيق واللا حضارية والشيطانية. وقد وقع البعض فى مصيدة تلك الدعايات وأصبحوا أدوات للإمبريالية ونظيرا لخدمتهم فإن القوى الإمبريالية تغدق عليهم المديح وتصفهم بأنهم مثقفون ولبيراليون وتقدميون وذوو أفق متسع».

وقد لقيت آراء ليمبيد صدى فى نفسى. فقد كنت أنا تحت تأثير أبوة الاستعمار الإنجليزى، وتحت جاذبية أن ينظر إلى البيض على أننى مثقف وتقدمى ومتحضر فقد كنت على وشك الانضمام للنخبة السوداء التى حاولت بريطانيا أن تزرعها فى إفريقيا وكان ذلك ما أراده الجميع لى ابتداء من الحاكم وحتى سيدلسكى. ومثل ليمبيد بدأت أعتقد أن الترياق هو القومية الإفريقية المناضلة.

كان هناك شباب آخرون يفكرون على الخط نفسه وكنا نلتقى لمناقشة تلك الأفكار. كان هناك ولتر سيسولو وأوليفر تامبو ود. ليونيل ماجو مبولزي ووليام نوكلو وداقيد بوبابي. وكان الكثيرون من الشباب يشعرون بأن المؤتمر أصبح متحفا لنخبة إفريقية مميزة متعربة وغير مناضلة. وكان الإجماع أنه لابد من القيام بعمل واقترح د. ماجو مبولزي تكوين تنظيم للشباب كطريقة لإيقاد النار تحت قيادة المؤتمر.

وفى عام ١٩٤٣ ذهبت لمقابلة د. إكسوما وكان يمتلك منزلا فخما فى صوفيا تاون بالإضافة إلى عيادة جراحة ومزرعة صغيرة. وكان وقتها رئيسا للمؤتمر وقد أدى إليه خدمة جليلة بإيقاظه من حالة النعاس والتعاس التى كان يعانيتها تحت القيادة السابقة وأفاده إفادة مادية عظيمة كما أنه هو شخصيا كان يتمتع باحترام رؤساء القبائل والوزراء. وكان ذا مظهر شامخ واثق مطمئن لا يناسب مظهر قائد منظمة جماهيرية. وكان اهتمامه الأول عمله كطبيب كما أنه كان يريد الإبقاء على العلاقات التى كونها مع مؤسسات البيض ولم يكن يريد أن يعرضها للخطر بالعمل السياسى.

وعند لقائنا أخبرناه بأننا ننوى إنشاء تنظيم للشباب وتنظيم حملة عمل نحشد بها مساندة الجماهير. وكنا قد أحضرنا معنا نسخة من مسودة دستور التنظيم والإعلام. ولكن د. إكسوما شعر بأن الدستور والتنظيم يهددانه وعارضهما بشدة.

وبعد ذلك بقليل شكّلت لجنة إقليمية لتنظيم الشباب بقيادة ويليام نكومو

ثم حضر أعضاؤها اجتماع المؤتمر السنوي وقدموا اقتراحهم وقُبِلَ الاقتراح.

وفى أول اجتماع أكد المتحدثون على إنجازات الإفريقيين وعلى القومية الإفريقية الوليدة وتمت انتخابات الإدارة وانتُخبت أنا فى اللجنة التنفيذية.

كانت صيحة الحرب لدينا هى القومية الإفريقية وكانت عقيدتنا هى خلق أمة واحدة من القبائل العديدة وإسقاط سيادة البيض وإنشاء حكومة ديمقراطية. وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى إعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوجيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد أيديولوجيات أجنبية بالجملة فى إفريقيا.

وكنت مرتبكا بشأن انضمامى للمنظمة وبشأن مدى التزامى السياسى فقد كانت لدى وظيفة وكنت منتسبا للجامعة ولم يكن عندى متسع من الوقت لشئٍ آخر. كما أنه كان يساورنى شعور عدم ثقة بوعى وثقافتى السياسية بالمقارنة ببولتر وليمبيد ومداء، كما أننا كنا مازلنا مختلفين حول إفريقية التنظيم وعمّا إذا كنا سنسمح لعناصر من البيض بالالتحاق وكنت فى ذلك الوقت معارضا لانضمام الشيوعيين والبيض.

وكان منزل سيسولو منزلا لى أيضا. وكانت زوجته ذات حكمة وحضور مدهش. وبينما كنت فى غرفة معيشتهم يوما التقيت بإيفيلين عيس زوجتى الأولى وكانت فتاة هادئة جميلة من الريف وكانت حينئذ تتسرب لتصبح ممرضة فى مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين.

كانت فتاة يتيمة من ترانسكي أرسلت لتتم تعليمها الثانوي في جوهانسبرج وكانت تمت بصلة قرابة لوالدة سيسولو.

وحدثت بيننا علاقة حب أعقبها زواج مدنى حيث لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف زواج تقليدى. وواجهتنا مشكلة السكن. فبعد إقامة قصيرة مع أخيها فى شرق أورلاندو أقمنا مع أختها فى منطقة المناجم حيث كان زوجها يعمل كاتباً.

-١٢-

فى عام ١٩٤٦ وقعت سلسلة أحداث حاسمة شكلت تطور الصراع واتجاهه. فقد حدث أن قام ٧٠.٠٠٠ من عمال المناجم بإضراب. وكان اتحاد عمال المناجم الإفريقية قد أقيم بناء على مبادرة من جيه. بى. ماركس، ودان تلوم، وجود ردايى وعدد من عناصر المؤتمر النشيطة وكان معظم عمال مناجم السخرة وعددهم حوالى ٤٠٠.٠٠٠ لا يزيد أجرهم على ٢ شلن فى اليوم. للفرد. وقد حاولت قيادة الاتحاد أن تضغط على غرفة المناجم لتحديد أجر أدنى يقدر بعشرة شلنات فى اليوم ومسكن عائلى وإجازة أسبوعين بأجر ولكن الغرفة تجاهلت هذه المطالب.

وفيما يعتبر من أكبر العمليات فى جنوب إفريقيا فقد أضرب عمال المناجم لمدة أسبوع وأبقوا على تضامنهم. وكان انتقام الدولة لا هوادة فيه فاعتقل القادة وحوصرت المجمعات السكنية ونُهبت مكاتب الاتحاد وقمعت الشرطة مسيرة احتجاج وقُتل اثنى عشر عاملاً.

وكان ماركس -وهو عضو قديم في المؤتمر والحزب الشيوعي- رئيسا للاتحاد. وكان من مواليد الترنسفال من أصل مختلط. ذا شخصية كاريزمية وكنت أنتقل معه أثناء الإضراب بين المناجم مخاطبين العمال ومخططين لاستراتيجية العمل. وقد أعجبنى تنظيم الاتحاد وقدرته على التحكم في الأعضاء حتى في مواجهة تلك المعارضة الوحشية. وانتصرت الدولة وقُمع الإضراب وسُحق الاتحاد. وكان الإضراب بداية علاقتي الوثيقة بماركس وكنت أزوره في منزله وقد ناقشنا معارضتي للشيوعية بالتفصيل وكان يشعر بأنه من الطبيعي لشاب مثلي أن يعتنق القومية وأن آرائى ستتسع حينما أكبر وأكتسب خبرة أكثر.

وناقشت القضايا نفسها مع موسيس كوتانى ويوسف دادوو وكانا يعتقدان أن الشيوعية يمكن أن تُطبق لتتناسب الموقف الإفريقي.

وبعد الإضراب اعتُقل اثنان وخمسون شخصا من بينهم كوتانى وماركس وعديد من الشيوعيين وقُدموا للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة والعصيان.

وأجبرتني حادثة أخرى في العام نفسه على تغيير معالجتى للعمل السياسى. ففي عام ١٩٤٦ أصدرت حكومة سماتس قانونا يقيد حرية حركة الهنود والأماكن التى يمكنهم السكنى والتجارة فيها ويحدد بشدة حقوقهم فى التملك. ومقابل ذلك منحوا حق التمثيل فى البرلمان بواسطة ممثلين بيض. وانتقد د. دادوو تلك القيود بعنف ووصف عرض التمثيل البرلمانى بأنه عرض زائف لتمثيل خادع واشتد غضب مجتمع

الهنود وبدأوا حملة عصيان مدنى مدتها سنتان، خلّفت فينا الحملة أثرا قويا لحسن تنظيمها وشدة الإخلاص لها. ولدة عامين علق الناس فيهما حياتهم ليخوضوا المعركة ونظموا المسيرات واحتلوا الأراضى المخصصة للبيض وطوقوها وأرسل ما لا يقل عن ألقى شخص للسجن. فيما تلقى د. نيكر و دادو أحكاماً بالأشغال الشاقة مدتها ستة أشهر. وقد شلت الحكومة حركة العصيان بالقوانين الصارمة ووسائل التخويف لكننا نحن فى تنظيم الشباب شهدنا المواطنين الهنود يسجلون احتجاجا غير عادى ضد القمع العنصرى بطريقة لم يتبعها الأفارقة ولا المؤتمر. فقد علق إسماعيل مير و جيه. إن سينج دراستهما وودعا أسرتيهما وذهبا إلى المعتقل وفعل مثلهما أحمد كاترادا الذى كان مازال طالبا فى المرحلة الثانوية.

أصبحت الحملة الهندية مثالا لنا فى تنظيم الشباب لنوع الاحتجاج الذى كنا ندعو إليه وغرست فينا روح التحدى والرايكية وكسرت حاجز الخوف من المعتقل.

وفى بداية عام ١٩٤٦ انتقلت وايثيلين إلى منزل من منازل البلدية فى أورلاندو الشرقية وبعد ذلك إلى منزل أكبر قليلا فى أورلاندو الغربية وهى منطقة متربة منازلها مثل الصناديق وأصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى. وكان إيجار المنزل سبعة عشر شلنا وست بنسات فى الشهر وكان مطابقا لمئات أخرى أقيمت على رقع صغيرة من الأرض غير المهددة وكانت أسقفها من الصفيح وأرضياتها من الإسمنت. ولم تكن الكهرباء قد دخلت بعد. وكان منزلى رغم تواضعه الشديد أول

منزل لى وكنت فخورا به. وتلك السنة ولد أول اولادى ماديبا شيمبكل وكنا نناديه بئمبى. وكنا أيضا نتلقى الضيوف والنزلاء فإن جميع أعضاء الأسرة طبقا لتقاليدنا لهم حق الضيافة عند أى فرد من أفراد الأسرة. وعلى ذلك فقد كان منزلى دائما ممتلئا بالضيوف.

وفى بداية عام ١٩٤٧ أنهيت فترة تدريبي فى المكتب وقررت أن أتفرغ لكى أحصل على درجتى الجامعية فى القانون لكى أفتح مكتبا خاصا بى. وتقدمت إلى صندوق الخدمات بطلب قرض ٢٥٠ جنيهها إسترلينا لتغطية نفقات إتمام دراستى ومنحت ١٥٠ جنيهها فقط. وبعد ثلاثة شهور تقدمت بطلب آخر ومنحت بقية المبلغ حيث إنه كانت زوجتى على وشك القيام بإجازة وضع تفقد أثناعها راتبها. وحدث بعد ذلك أن ولدت لنا طفلة ضعيفة مريضة توفيت وعمرها تسعة أشهر.

وعقب مرض مفاجئ توفى ليمبيد وكان لوفاته أثر عميق على الكثيرين وأنهك الحزن سيسولا خاصة. وكان موته انتكاسة للحركة حيث كان ليمبيد نبعا للأفكار التى اجتذبت الكثيرين للمنظمة.

وخلف ليمبيد بيتر مدا الذى جعلت منه طريقته التحليلية وقدرته على التعبير ببساطة ووضوح وخبرته التكتيكية سياسيا ممتازا وقائدا مرموقا للتنظيم. وكان مدا يؤمن بأن تنظيم الشباب يجب أن يكون جماعة ضغط وجناح نضال يعمل من خلال إطار المؤتمر ككل حتى يدفع بالمؤتمر إلى عهد جديد.

وأسس مدا فرعا لتنظيم الشباب فى فورث هير تحت قيادة زد. كيه.

ماثيوس وجود فري بيجه وقاما بتجنيد عدد من الطلبة المرموقين الذين أتوا للتنظيم بدماء وأفكار جديدة. ومن بين هؤلاء جو ابن ماثيوس وروبرت سوبوكوي الذي كان خطيبا لامعا ومفكرا واضحا. وكنت مازلت من بين أعضاء التنظيم الذين كانت تملؤهم الشكوك من اليسار الأبيض وكنت أعارض الحملات المشتركة للمؤتمر والحزب الشيوعي وأعتقد أن القومية الإفريقية الخالصة هي التي ستحررنا وليست الماركسية أو التعددية الإثنية وكنت أشعر نحو الهنود بنفس شعوري نحو الشيوعيين.

وفي عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا في اللجنة المركزية للمؤتمر الوطني الإفريقي عن إقليم الترانسفال وعملت تحت إمرة رئيسه راموهانو وكان ذلك أول منصب لي في المؤتمر وكان علامة في تاريخ التزامي تجاهه. ومنذ ذلك الحين بدأت أتوحد قلبا وقالبًا مع المؤتمر ككل بطموحاته ونجاحاته وفشله.

وفي عام ١٩٤٧ وقع د. إكسوما رئيس المؤتمر ود. دادوو رئيس المؤتمر الهندي الترانسفالى ود. نيكر رئيس المؤتمر الهندي اليناقي للعمل الجماعي عرف بميثاق الأطباء للعمل ضد العدو المشترك وكانت تلك خطوة هامة لتوحيد الحركات الهندية والإفريقية وفيما بعد لحقت بهم منظمة الشعب الإفريقي وهي منظمة للملونين.

-١٢-

رغم أنه لم يكن للأفارقة حق التصويت فلم يعن ذلك أننا لم نكن نهتم

بمن يكسب الانتخابات. وكان الحزب المتحد بقيادة سماتس يتمتع باحترام دولي لتأييده الحلفاء فى الحرب على خلاف حزب القوميين الذى أيد النازية. وأدار حزب القوميين حملته حول الخطر الأسود وكان لهم شعاران: «فليبق الزنوج فى أماكنهم» و«فليرحل الصالون» أى الهنود. وكان القوميون بقيادة دانيال مالان تحفزهم مرارتهم ضد الإنجليز الذين عاملوهم باحتقار لعشرات السنين وضد الأفارقة الذين كانوا يرون أنهم يهددون نقاء الحضارة الأفريقية وازدهارها. ورغم عدم ولاء الأفارقة لسماتس فقد كان ولاؤنا أقل للقوميين وعرفت دعاية مالان الانتخابية بالأبارتايد وكان لفظاً مستحدثاً رغم قدم الفكرة ذاتها. وكانت الكلمة حرفياً تعنى الفصل، أى أنه ما ظل واقعا كان سيصبح شرعياً طبقاً للقانون وأن التفرقة ستصبح نظاماً متوحداً قوياً شيطاني التفاصيل لا فرار من قبضته. وكانت افتراضية الأبارتايد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والمولدين والهنود. وكانت وظيفته تتحصر فى ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون «إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيداً» بكل ما يحمله لفظ السيادة من معانى العنف. وكانت الكنيسة الإصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدى القائم على الأسطورة التى مفادها «أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع».

وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان. وكانت شعارات القوميين وهى «شعبنا ولغتنا وأرضنا» تلخص مهمتهم

ورسالتهم.

وحيثما انتصر القوميون صدمت صدمة أذهلتني لكن أوليقر أمبو علق قائلاً: «إنني راض عن ذلك ولا أعرف لماذا. فالآن نحن نعرف تماماً أعداينا ونعرف أين نقف». وأعلن مالان في خطاب انتصاره قائلاً: «والآن فإن جنوب إفريقيا قد عادت لنا».

وفي العام نفسه جدد تنظيم الشباب سياسته في وثيقة كتبها مدا وأصدرتها اللجنة المركزية التنفيذية وكانت صريحة تحت كل الشباب الوطني على الاتحاد لِيُسْقَطَ السيادة البيضاء ورفضنا الفكر الشيوعي القائل بأن الإفريقيين مضطهدون كطبقة اجتماعية وليس كجنس. وأضفنا أنه لا بد من خلق حركة تحرر قوى تحت لواء القومية الإفريقية يقودها الإفريقيون أنفسهم ونادينا بإعادة توزيع الأراضي على أسس أكثر عدالة وإلغاء الحواجز القائمة على أساس لون البشرة كما نادينا بالحاجة إلى تعليم مجاني وإلزامي.

وكنت حينئذ متعاطفاً مع التيار الأكثر ثورية من التيارات القومية. فقد كان غضبي منصباً على الرجل الأبيض وليس على التفرقة في حد ذاتها. وكنيت على استعداد لتقبل الهنود والملونين على أن يتقبلوا هم سياستنا. ولكن اهتماماتهم لم تكن هي اهتماماتنا وكنيت متشككاً في قدرتهم على احتضان قضيتنا عن صدق.

وفي خطوات متلاحقة بدأ مالان تنفيذ برنامجه الكريه، فأعلنت الحكومة عزمها على تقليص حركة الاتحادات، وإلغاء الحقوق الدستورية

المحدودة للهنود والملونين والأفارقة. وصدر قانون منع الزيجات المختلطة أعقبه قانون الفجور الذي يجرم أى اتصال جنسى بين البيض والأجناس الأخرى. ثم صدر قانون تصنيف السكان الذى صنف سكان جنوب إفريقيا على أساس عرقى قائم على اللون، ثم قانون مناطق الجماعات الذى هو لب الأبارتايد والذى طالب بمناطق مدنية لكل مجموعة عرقية. وهكذا فبينما كان البيض يستولون على الأراضى بالقوة فى الماضى أصبحوا الآن يفعلون ذلك بقوة القانون. وفى ظل ذلك اتخذ تنظيم الشباب والمؤتمر خطوات لتعبئة الجماهير.

فى الاجتماع السنوى للمؤتمر تم تبني خطة عمل التنظيم. ودعا المؤتمر إلى المقاطعة والإضرابات والبقاء فى المنازل والمقاومة السلبية ومظاهرات الاحتجاج وغيرها من أشكال العمل الجماهيرى وذلك رغم وجود معارضة من داخل المؤتمر وخاصة من د. إكسوما الذى كان يرى فى استراتيجيتنا خطرا قد يعطى الحكومة فرصة لسحقنا كما أنه كان غير مستعد لأن يعرض منصبه وعمله كطبيب للخطر. فأعطيناه إنذارا بأننا لن نصوت فى صالحه فى انتخابات رئاسة المؤتمر إن لم يوافق على خطتنا فاتهمنا بالغرور ومحاولة ابتزازه وطرده من منزله.

وحاولنا فى ديسمبر التالى خلع إكسوما وإحلال د. موروكا مكانه رغم عضوية الأخير فى منظمة الأفارقة التى كانت تسودها العناصر التروتسكية إلا أنه كان نشيطا وكان يؤيد برنامجنا وكان طبيبا مثقفا من أكثر السود ثراء. وفى انتخابات المؤتمر هُزم إكسوما وانتخب موروكا رئيسا عاما وسيسولا سكرتيرا عاما وتامبو عضوا فى اللجنة

التنفيذية.

وكان البرنامج الجديد قد نادى أيضا بتحديد يوم للتوقف عن العمل على المستوى القومى احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية. وبذلك نجحنا نحن أعضاء تنظيم الشباب فى توجيه المؤتمر نحو طريق أكثر راديكالية وثورية.

وكنت قد انتقلت للعمل فى مكتب جديد للمحاماة وكان عملى يستغرق كل وقتى ورغم ليبرالية أصحاب العمل فقد كانوا يريدون منى أن أنسى السياسة.

جاشت روح العمل الجماهيرى، لكن شكوكى حول الهنود والشيوعيين استمرت. وقد اجتذب مؤتمر الدفاع عن حرية الكلام الذى نظمه مؤتمر الترانسفال ومجلس الترانسفال الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى واللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى جوهانسبرج فى مارس عام ١٩٥٠ عشرة آلاف شخص وترأسه د. موروكا ونجح المؤتمر ولكن حذرى استمر حيث إن المنظم الأول للمؤتمر كان الحزب الشيوعى.

وبمبادرة من الحزب الشيوعى والمجلس الهندى قرر المؤتمر تنظيم إضراب لمدة يوم واحد هو أول مايو يسمى يوم الحرية وينادى بإلغاء قوانين التصاريح وكل تشريعات التفرقة ورغم مساندتى للأهداف فقد اعتقدت أن الشيوعيين يريدون أن يطفئوا هج يوم الاحتجاج الذى اقترحه المؤتمر الإفريقى ولذا عارضت الإضراب.

وكان أحمد كاثرادا حينئذ فى الحادية والعشرين من عمره وكان

عضوا هاما فى مجلس الشباب الهندى للترانسفال وقد سمع عن معارضتى للإضراب. وحينما قابلنى اتهمنى أنا وتنظيم الشباب بأننا لا نريد العمل مع الهنود والملونين رغم أنه واثق من أن جماهير الأفارقة تؤيد الإضراب.

ونفذ إضراب يوم الحرية نون تأييد رسمى من المؤتمر. وكانت الحكومة قد حظرت كل الاجتماعات والتجمعات ترقبا له. وقد بقى أكثر من ثلثى العمال الأفارقة فى منازلهم ذلك اليوم. وبينما كنت وولتر فى غرب أورلاندو نرقب مسيرات الاحتجاج والتجمعات إذا بالشرطة تطلق النار فى اتجاهنا.

وانبطحنا أرضا ثم سارعنا بالاختفاء فى منزل للممرضات حيث سمعنا الطلقات النارية التى نتج عنها وفاة ثمانية عشر إفريقيًا وجرح العديد.

وبعد أسابيع أصدر القوميون قانون حظر الشيوعية وتجريم الحزب الشيوعى واعتبار عضويته جريمة يعاقب عليها بالسجن عشر سنوات. وكان نص ذلك القانون يرى أن اعتناق أى مذهب يشجع أى تغيير سياسى أو صناعى أو اقتصادى أو اجتماعى جريمة. وعلى ذلك فقد سمح ذلك القانون للحكومة أن تحظر أية منظمة وأن تقيد أى فرد معارض لسياستها.

واجتمع المؤتمر والمجلس الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى لمناقشة تلك الإجراءات وأعلن دانوو مع آخرين أنه من الغباء أن نسمح لخلافات

قديمة أن تقف فى طريق تكوين جبهة متحدة ضد الحكومة. وفى خطابى قلت إن حظر أية منظمة هو حظر لجميع المنظمات. وقررنا تخصيص يوم ٢٦ يونيو يوماً قومياً للاحتجاج على مقتل ثمانية عشر إفريقيًا فى أول مايو.

وكننت فى بداية ذلك العام قد حطت محل د. إكسوما الذى كان قد استقال لمرضه من عضوية اللجنة المركزية للمؤتمر وأصبحت فى مركز من مراكز القوة التى طالما ثرت عليها.

كانت الأعمال الجماهيرية فى جنوب إفريقيا محفوفة بالأخطار حيث كان الإضراب بالنسبة للإفريقيى جنحة جنائية، وحيث كانت حقوق الكلام والحركة مقيدة بلا هوادة. وكان الإضراب السياسى أشد مخاطرة من الإضراب الاقتصادى وكان يوم الاحتجاج إضراباً سياسياً.

وفى سبيل الإعداد ليوم ٢٦ يونيو أخذ ولتر يجوب أنحاء البلاد للتشاور مع القادة المحليين وفى غيابه توليت مسئولية مكتب المؤتمر وأخذت بمحور العمل القومى المعقد والتحاور مع القادة المختلفين فى جميع أنحاء البلاد عن طريق الهاتف، وكان التخطيط متسرعاً.

كان يوم الاحتجاج أول محاولة للمؤتمر لتنفيذ إضراب سياسى على مستوى قومى ولاقى نجاحاً معتدلاً. ففى المدن بقى معظم العمال الأفارقة فى المنازل وظلت متاجر السود مغلقة. كما حدثت مظاهرات فى أماكن أخرى كتبت عنها الصحف فى العناوين الرئيسية. وارتفعت

معنوياتنا وأرسلنا إنذارا لحكومة مالان مقتضاه أننا لن نبقى سلبيين فى مواجهة الأبارتايد. وظل يوم ٢٦ يونيو علامة مميزة فى تاريخ الكفاح ويحتفى به كيوم الحرية. وكانت تلك أول مرة أقوم بدور هام فى حملة قومية وشعرت بالبهجة النابعة من النجاح فى المعركة.

وفى تلك الأثناء ولد ابنى الثانى وكنت مع إيثيلين حينما خرج للحياة لكن لم أمكث سوى فترة وجيزة وقد سمى ماكجاثو لوانيكيا على اسم بطل إفريقى مكافح من زامبيا.

وفى تلك الأيام كانت تعوزنى الثقة حيال ما أنا ضده وما أنا معه. فقد كانت معارضتى الطويلة للشيوعية قد بدأت تضعف. وكان موسيس كوتانى كثيرا ما يأتى إلى منزلى ليلا ويسألنى عن سبب عدائى ولم تكن لى إجابة. كان الكثيرون من أعضاء الحزب أصدقاء لى وكانوا متفانين فى القضية. أما د. دادوو أحد أعضاء المقاومة عام ١٩٤٦ فقد كان ماركسيا مرموقا وكان دوره كمدافع عن حقوق الإنسان قد جعل منه بطلا لكل المجموعات. ورغم ذلك فلم أكف عن مساعطة الأسس الفلسفية للماركسية ولم أكن أعلم الكثير عنها. وعلى ذلك حصلت على الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز ولينين وستالين وماوتسى تونج وغيرهم. وأجهدنى كتاب رأس المال بينما حفرضى المانيفستو الشيوعى ولاقت فكرة مجتمع بلا طبقات من نفسى استجابة قوية إذ وجدت لها تشابه الحضارة الإفريقية حيث يتقاسم الناس الحياة مشاعا. وأقنعتنى مقولة ماركس الأساسية التى وجدت فيها قاعدة زهبية والتى تقول «لكل طبقا لقدراته لكل طبقا لاحتياجاته». وبدت الديالكتية المادية

وكانها تلقى ضوءاً على الاضطهاد العرقى، وأيضاً كآلية يمكن توظيفها لإنهائه وساعدتني على رؤية الموقف من زاوية غير زاوية العلاقة بين السود والبيض لأنه إذا كان لحركتنا أن تنجح فلا بد لها أن تتسامى على اللون. كما جذبتني الأسس العلمية للديالكتيك المادى وتحليلها للاقتصاد وبدت لى الفكرة التى تقول إن قيمة السلع تقدر على أساس العمل المبذول لإنتاجها مناسبة بصفة خاصة لجنوب إفريقيا إذ إن الطبقة الحاكمة كانت تدفع للعمال الأفارقة أجوراً دنياً وتضيف قيمة الأجور الحقيقية إلى تكاليف السلعة وتحفظ لنفسها بالفرق. وكان لدعوة ماركس للعمل الثورى وقع الموسيقى على أذنى. وخلال قراعتى للأعمال الماركسية وجدت معلومات كثيرة لها علاقة بنوع المشاكل التى تواجه السياسى الممارس بالإضافة إلى أن الماركسيين اهتموا بحركات التحرر القومية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكان ذلك سبباً آخر لتغيير نظرتى للشيوعيين وقبولى ترحيب المؤتمر بهم بين صفوفه. ولم يكن على أن أعتنق الشيوعية لأعمل معهم ووجدت أن القومى الإفريقى والقومى الشيوعى بينهما عوامل مشتركة أكثر من اختلافات.

-١٤-

فى عام ١٩٥٠ أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية فى الأبارتايد وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقى وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحياناً التفريق بين

أعضاء الأسرة الواحدة اعتماداً على لون البشرة وتجاويد الشعر وسمك الشفتين. أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتايد السكاني وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضي أو المساكن التي يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء. كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة في حالة قرب المناطق التي يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكان البيض.

وكانت صوفيا تاون على رأس تلك القائمة وهي منطقة حية كان يسكنها أكثر من خمسين ألف إفريقي وكانت إحدى أقدم المواطن الإفريقية في جوهانسبرج وكانت تقيض حياة رغم فقرها كما كانت تحتضن كثيراً مما هو جديد وقيم في حياة الأفارقة وحضارتهم وكان لها على صغرها معنى رمزي للأفارقة يفوق حجمها.

وأصدرت الحكومة أيضاً قراراتين أُلغى بمقتضاهما حق التمثيل النيابي بالنسبة للملونين كما أُلغى المجلس النيابي للبانتم وهو منتدى إفريقي له دور التمثيل غير المباشر وأُحلت الحكومة محله نظاماً هرمياً من رؤساء القبائل الذين تعينهم الحكومة على أساس إثني وكان الهدف هو إعادة السلطة للرؤساء المحافظين وتقوية الاختلافات الإثنية التي كانت بادئة في الزوال. ونتيجة لذلك نظم الملونون مظاهرة ضد القانون الخاص بهم في كيب تاون وإضراب ظلت على إثره المتاجر والمدارس مغلقة. وعملاً بروح المقاومة المشتركة بين الطوائف الثلاث طرح سيسولو فكرة حملة للعصيان المدني.

ولقيت الفكرة منا قبولا ولكنى وبصفتى حينئذ رئيسا لتنظيم الشباب كنت أرى أن تقتصر الحملة على الأفارقة فقد كنت مازلت أخشى تأثير الهنود. ولكن رأيت هُزْم في الاقتراع وأخيرا قبلت برأى الأغلبية. ووجه القادة نداء للحكومة لإلغاء القوانين الإثنية والعنصرية ثم قرر المجلس الذي تم تشكيله من هؤلاء القادة أن يقوم المؤتمر بتنظيم مظاهرات يوم ٦ أبريل عام ١٩٥٢ كمقدمة لبدء حركة العصيان. وكان ذلك هو يوم احتفال البيض بالعيد الثلاثمائة لوصول جان فان رايبك إلى الكيب وكان يحتفون به على أنه يوم إنشاء دولتهم بينما يلعب الأفارقة كبداية ثلاثمائة عام من الاستعباد. وصاغ المؤتمر خطابا لرئيس الوزراء يعلمه بالقرارات وينصحه بإلغاء القوانين وكنا نحتاج إلى توقيع د.موروكا على الخطاب لأنه كان موجهها باسمه وأوكلت لى مهمة السفر إلى ولاية أورانج الحرة للحصول على التوقيع. وسافرت إلى هناك بالسيارة فقد كنت قد حصلت على رخصة قيادة وكان ذلك شيئا غير عادى بالنسبة للأفارقة. وحدثت على الطريق لى حادثة تورطت فيها مع الشرطة وسببت تأخيرا لكنها انتهت بسلام. وحصلت على توقيع د.موروكا وأرسل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى أجاب فى رسالة موقعة من سكرتيره الخاص أنه من حق البيض أن يتخذوا من الإجراءات ما يضمن بقاء هويتهم كقومية منفصلة وأنهى الرد محذرا من أنه إذا ما اتبعنا إجراءاتنا فإن الدولة ستتخذ جميع الوسائل المتاحة لها لإخماد أى اضطرابات. وقد اعتبرنا رد مالان القاطع إعلانا للحرب ولم يكن أمامنا سوى اللجوء للعصيان المدنى وأخذنا نعد

العدة للعمل الجماهيرى، وكان من المهمات الأساسية تجنيد وتدريب متطوعين للحملة لضمان نجاحها. وبدأت التجمعات والتظاهرات المبدئية وخطبتُ فى بعضها مبيّنا أن التطوع واجب صعب وخطر وأن السلطات ستعمل على إرهاب وسجن ومهاجمة المتطوعين وأنهم لابد لهم أن يردوا على العنف بعدم استعمال العنف وأن يحافظوا على النظام مهما كلف الأمر.

وكان الاتفاق قد تم على قيادة الحملة طبقاً لمبادئ غاندى التى تسعى إلى الكسب عن طريق تغيير المعتقدات وأيد ذلك نجل المهاتما مانىلا غاندى رئيس تحرير صحيفة الراى الهندى وعضو المجلس الهندى البارز والذى كان هو شخصياً تجسيدا لمبادئ والده.

وكان آخرون وأنا من بينهم يرون أننا لا يجوز أن نتبنى مبادئ معينة بل نضع تكتيكا ومنهجا يناسب الظروف وبما أن الدولة قوية فإن استعمال العنف سيؤدى لسحقنا. وهكذا دعوت للاحتجاج السلمى طالما كان ذلك مؤثرا وليس كمبدأ. وقد تبنت الأغلبية رأى رغم معارضة مانىلا غاندى القوية.

وتم اقتراح مرحلتين للتحدى يقوم عدد من المتطوعين فى المرحلة الأولى بخرق عدد من القوانين فى المناطق المدنية كأن يدخلوا مناطق محظورة دون تصاريح أو يستعملوا منشآت خاصة بالبيض كالمراحيض ومقصورات القطارات ومدخل مكاتب البريد أو يبقوا فى المدينة بعد ميعاد منع التجول. وعُيّن قائد لكل مجموعة كان عليه أن

يبلغ الشرطة قبل القيام بالعصيان حتى تتم إجراءات القبض بأقل قدر من التشويش. وكان تصورنا للمرحلة الثانية أن تكون تحديا جماهيريا يرافقه إضراب وعمليات فى المؤسسات الصناعية عبر البلاد.

وقبيل الحملة عُقد اجتماع سمي بيوم المتطوعين وهو يوم ٢٦ يونيو فى دربان وكان ضمن المتحدثين الرئيس لوثولى رئيس المؤتمر فى ناتال ود. نيكر رئيس المجلس الهندى هناك وأعلنا التزامهما بالحملة وكنت أنا المتحدث الرئيسى وكان هناك ما يقرب من عشرة آلاف من الحضور.

وعلى طول البلاد وعرضها فإن الذين قاموا بالتحدى يوم ٢٦ يونيو فعلوا ذلك بشجاعة وحماس وحس بالتاريخ. وبدأت الحملة فى بورت إليزابيث حيث دخلت جماعة محطة للقطارات من مدخل البيض وتم القبض عليهم وكانوا وهم يسرون ينشدون أغانى الحرية بينما كانت أسرهم وأصدقائهم يحيونهم ويتصايحون «فلتعد إلينا إفريقيا».

وطبقا للخطة فقد كان متطوعو المؤتمر سيقومون بدخول منطقة فى شرق جوهانسبرج دون تصريح وفى آخر لحظة اعتذر القس الذى كان سيقودهم لمرضه وهنا أحللت المبجل الهندى نانا سيتا رغم مرضه بالروماتويد وكبر سنه وكنا نريد بمثل تلك القيادة أن نبرهن أننا لسنا فقط مجموعة من الشباب الطائش. ثم بعد ذلك اكتشفت غياب سكرتير فرع المؤتمر فى الترנסفال الذى كان سيرافق نانا سيتا وأحللنا وولتر سيسولو محله رغم كونه أحد المنظمين. ثم ذهبت أنا ويوسف

كاتشاليا للمنطقة حيث كنا سنسلم القاضى هناك خطابا نخبره أن خمسين متطوعا سيدخلون المنطقة بدون تصريح. وفى مكتبه وجدنا عددا من المراسلين الصحفيين والمصورين الذين أخذوا فى التقاط الصور.

وسارت المظاهرة بنجاح وحماس ورغم الاستمرار فى إغلاق بوابات الحى فقد انتظر المتطوعون بصبر وأخذوا يطالبون بالدخول بقيادة وولتر. أما الروح المحركة فكان نانا سينا الذى ظل رغم مرضه يتحرك بين المتظاهرين ويحث فيهم روح الحماس ثم فتحت الأبواب وأندفع المتطوعون فوراً فى عملية خرق للقانون وحاصرت الشرطة المتطوعين وألقت القبض عليهم كما كان مخططا ونقل المتطوعون إلى مركز الشرطة ووجه إليهم الاتهام.

وفى المساء اجتمعنا نحن قيادة لجنة العمل لمناقشة أحداث اليوم والتخطيط لأسبوع قادم وكان ذلك قرب المنطقة التى كان مقرراً لجموعة أخرى من المتحدين أن يخرقوا قانون منع التجوال والقيام بمسيرة جماعية فى الشارع.

وخرجنا من الاجتماع فى منتصف الليل وفى تلك اللحظة اقترب منى أنا ويوسف كاتشاليا رجل شرطة وكان من الواضح أننا كنا فى طريقنا إلى منزلنا ولم نكن من المتحدين. وألقى القبض علينا وبعد دقائق وجدنا أنفسنا بين أكثر من خمسين من متطوعينا. وكان المكان قدراً وقيمياً لكن معنوياتنا كانت مرتفعة ومر اليومان بسرعة.

وخلال الأشهر الخمسة التالية اشترك فى الحملة ٨٥٠٠ شخص من أطباء وعمال ومحامين ومدرسين وقساوسة وطلبة تحدوا القانون ودخلوا السجن. وانتشرت الحملة فى طول البلاد وعرضها ولقيت أصداء إعلامية هائلة وارتفع عدد المشتركين فى المؤتمر الوطنى الإفريقى من ٢٠.٠٠٠ إلى ١٠٠.٠٠٠.

ورأت الحكومة فى الحملة خطرا على أمنها وعلى سياسة الأبارتايد. وكان العصيان المدنى لا ينظر إليه على أنه من أعمال الاحتجاج بل كجريمة. بالإضافة إلى أن العمل المشترك بين الهنود والأفارقة أزعجهم فقد كان الهدف من الأبارتايد تقسيم المجموعات الإثنية. وعلى ذلك أصر القوميون أن الحملة كانت من تدمير عناصر الشغب الشيوعية وأصدرت الحكومة قانون الأمن العام الذى يخول للسلطة إعلان القانون العسكرى أو حالة الطوارئ واحتجاز الأفراد دون محاكمة وقانونا آخر يجيز العقوبة الجسدية للمتحدثين.

وقد حاولت الحكومة أيضا استخدام الوسائل الخبيثة لإفشال الحملة ففسدوا الجواسيس والعملاء فى المنظمة ونجحت الشرطة فى اختراق بعض الفروع المحلية والمتحدثين. وكان الأفارقة الذين يعملون جواسيس يفعلون ذلك من أجل المال وكانوا يرون فىنا تهديدا، ليس لبنيان القوى البيضاء، لكن لمصالح السود لأنهم اعتقدوا أن البيض سيسيطرون معاملة كل السود بسبب أعمال الشغب. ورغم ذلك فقد كان هناك عديد من رجال الشرطة السود الذين ساعدونا فى السر وكانوا يقومون بإخبارنا عن ميعاد هجمات الشرطة معرضين حياتهم للخطر.

وفى مايو، وفى منتصف حملة التحدى، صدر قرار «بحظر» جيه. بى. ماركس طبقاً لقانون عام ١٩٥٠ الخاص بحظر الشيوعية لمساعدته على تحقيق أهداف الشيوعية.

وكان «الحظر» أمراً قانونياً من الحكومة ويترتب عليه الاستقالة الإيجابية من المنظمة التى يحدونها ومنع حضور الفرد أى اجتماعات. كان أشبه بالسجن المتحرك ولم تكن الحكومة تحتاج إلى أى برهان لحظر أى شخص وكان تجاهل أو خرق أمر الحظر يعاقب بالسجن.

وبناء على توصية ماركس قمتُ بترشيح نفسى لرئاسة فرع الترانسفال بدلا منه وفزت بأغلبية ساحقة.

وفى ٢ يوليو عام ١٩٥٢ وبينما كنت فى عملى بمكتب المحاماة حضرت الشرطة وألقت القبض علىّ بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية. وقامت الحكومة بسلسلة اعتقالات فى أنحاء البلاد وتفتيش المكاتب والمنازل. وتمت المحاكمات فى ٢١ سبتمبر وكان ضمن من قدم للمحاكمة د. موروكا وماركس ودانوو وكاتشاليا وكاترادا. وكان ظهورنا فى المحكمة مناسبة لقيام مظاهرات صاخبة وكان بين المتظاهرين طلبة بيض من جامعة ويتواتر ساند ورجال المؤتمر الكبار من ألكسندرا وطلبة مدارس ابتدائية وثانوية. واكتظت المحكمة نفسها بالجموع الذين أخذوا يهتفون لإفريقيا الحرة.

عكرت خيانة د. موروكا رئيس عام المؤتمر ورمز الحملة صفو المحاكمة.

فقد أذهلنا، بتفويض محاميه الخاص في حين أن الخطة كانت أن تتم محاكمتنا معا. وفوضنى زملائى للحديث مع موروكا لكننى لم أنجح فى إقناعه بالعدول. وقدم التماسا ذليلا لتخفيف الحكم وعند سماع أقواله تبرأ من المبادئ التى يقوم عليها المؤتمر وفى ٢ ديسمبر أذانتنا المحكمة بتهمة الشيوعية. وطبقا لقانون حظر الشيوعية كان من الممكن اتهام أى فرد يعارض الحكومة بالشيوعية حتى دون أن يكون عضوا فى الحزب. وكان القاضى عادلا فرغم تهمتنا التى كانت تتراوح ما بين عدم إطاعة القانون والخيانة العظمى فقد اقتنع بأننا كنا دائما نصح الأعضاء بالعمل السلمى. وحكم على كل منا بالسجن تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ.

لقد ارتكبنا عدة أخطاء لكن حملة التحدى كانت نقطة تحول فى تاريخ المعركة وخرج المؤتمر من الحملة منظمة ذات قاعدة جماهيرية وكوادر ذات خبرة فى العمل تحدى الشرطة والمحاكم والسجون. وزالت الوصمة التى كانت ترتبط بالسجن وكان ذلك إنجازا هاما لأن الخوف من المعتقل يشكل عائقا هائلا لحركات التحرر.

وحررتنى الحملة من عقد النقص والدونية ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته. وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية. ■